الدرس اللغوي العربي: رؤية استشراقية

أ. أحمـــــد بنـــاني
مخـــبر الموروث العلمي
والثقافي لمنطقة تامنغست
المركز الجامعي لتامنغست
abenani11 @yahoo.com

ملخص البحث

يعد الدرس اللغوي من أهم مداخل الاستشراق، فالصلة وثيقة بينهما منذ أن سلط الاستشراق اهتمامه على النظم والأفكار والأديان واللغات، بقرار مجمع فينا الكنسي عام 1312م القاضي بتأسيس عدد من كراسي الأستاذية في العربية واليونانية والعبرية والسريانية في جامعات باريس وأكسفورد وبولونيا وأفينيون وسلامانكا.

وفي هذه المداخلة سنتناول كيفية تعامل الاستشراق مع الدرس اللغوي العربي، من خلال رؤيتهم لنشأة الدرس اللغوي، ومناهجه، كما سنقف عند أهدافهم في تناول هذا الموضوع بالغ الأهمية.

OOO

تمهيد:

يعد الدرس اللغوي من أهم مداخل الاستشراق إلى تراث الشرق، وهو رأي يشاطره معظم الدارسين حتى ذهب بعضهم إلى أن الاستشراق علم يصب جل اهتمامه على مفاصل الدرس اللغوي، كما سلط اهتمامه على النظم والأفكار والأديان، فقد نشأ الاستشراق بقرار مجمع فينا الكنسي عام 1312م بتأسيس عدد من كراسي الأستاذية في العربية واليونانية والعبرية والسريانية في جامعات باريس وأكسفورد وبولونيا وأفينيون وغيرها.

ولقد رأى المستشرقون أن الدرس اللغوي العربي على درجة كبيرة من الأهمية لمن أراد أن يقوم الحضارة العربية، وعليه فإنه يمكن أن يساعدهم في تحقيق أهدافهم الذين راموا تحقيقها، وهي كثيرة ومتشعبة لا يستبعد منها هدف السيطرة والتسلط والاستعلاء.

أهمية اللغة العربية بوابة الاستشراق إلى الدرس اللغوي العربي

إن اللغة في الأمة الناطقة بها هي حمال ثروتها الدينية والفكرية والحضارية، فهي تعبر عن مشاعر الأمة وآدابها ومنتجاتها، والواقع أن معرفة الحقائق الدينية سواء كانت تشريعا علميا أو أخلاقيا أو آدابا أو حتى أفكارا ومبادئ عقلية أو وجدانية وغيرها، لابد أن يملي عليها ألوانا أخرى من المفردات والصيغ التعبيرية الدينية، التي تستوعب المعاني وتدل عليها دلالات صحيحة ([1])

إن الباحثين يلجئون إلى اللغة ليستنبطوا منها خصائص أمة من الأمم كلما عجزت الدلائل الأخرى أن تعطيهم صورة صحيحة عنها، فرقي لغة من اللغات عنوان رقي الأمة الناطقة بها، كما أن انحطاط لغة من اللغات عنوان انحطاط الأمة الناطقة بها، و الثروة الدينية والعلمية والثقافية التي تقدمها لغة من اللغات متمثلة فيما أنتجه المثقفون، والفقهاء، والعلماء الناطقون بها أعظم مجد يتمتع به تاريخها الذي يكسو الأمة صاحب هذه اللغة بحلل من المجد الديني والعلمي والحضاري([2])

وإذا وقفنا على أكثر اللغات شيوعا في العالم فإن البحث المقارن في تاريخ اللغات العالمية يؤكد بأن للعربية الفصحى أكبر نصيب عرفته لغة واسعة الانتشار في العالم منذ فجر التاريخ حتى اليوم تشهد على ذلك الكنوز الحضارية الدينية والمدنية والعلمية والثقافية المنبثة في المكتبة العربية والإسلامية الجامعة لآلاف الألوف من المؤلفات الضخمة النافعة في شتى العلوم، ومختلف الفنون والآداب، والتي يقع في منزلة الرأس منها كتاب الله المنزل ثم من دونه كلام الرسول العربي الأمي محمد صلوات الله وسلامه عليه، ثم تأتي ذخائر الكتب النفيسة الهائلة التي تستطيع أن تتوج الأمة الإسلامية والعربية بتاج المجد العظيم بين أمم الأرض ([3])

إن إدراك المستشرقين المبشرين إن ارتباط الشعوب الشرقية بلغتها هو ارتباط بالهوية ارتباط بالتراث والتاريخ ارتباط بالدين الحنيف وتمسك بالقرآن الكريم الذي نزل بلسان عربي مبين، وارتباط بوحدة الأرض والتاريخ والمصير فهدم اللغة العربية هو هدم للهوية وللتاريخ وتحطيم للوحدة وتشتيت للتراث وتبديد للدين فلولا القرآن الكريم لانقرضت اللغة العربية الفصحى كسائر لغات العالم التي اختفت .

إن إدراك دور اللغة العربية الفصحى في المجتمعات العربية والإسلامية جعل المستشرقين يوجهون كل قواهم وبشتى الوسائل الممكنة لصد الشعوب العربية والإسلامية عن اللغة العربية الفصحى، وتشجيعهم أبناء الشعوب العربية والإسلامية على أن تكون لغاتها المحلية ولهجاتها الإقليمية العامية البعيدة كل البعد عن اللغة العربية الفصحى هي اللغات المستعملة في كتاباتها المتنوعة في العلوم والفنون والآداب والمعاملات وغيرها، وتشجيعها أيضا على هجر رسم الكتابة العربية، ووضع الحروف اللاتينية موضعها، أو إحداث رسم جديد بعيد عن الرسم العربي ([4])

كما أن المستعمر أدرك هذه الأهمية فقدم لغته الأجنبية في إرسالياته في البلاد العربية والإسلامية فجعلها لغة إجبارية منذ المرحلة الابتدائية حتى المرحلة الجامعية واعتبارها اللغة الأولى في البلاد مع إهمال اللغة العربية بدعوى أنها وطنية لا تحتاج إلى تعليم واسع، وهم يخلطون خلطا متعمدا في هذا الكلام بين اللغة العامية المنتشرة في البلاد، وبين اللغة العربية الفصحى لغة القرآن الكريم لتنطلي الحيلة على الأهالي من أفراد الشعب السذج وغايتهم إنه بعد عقود من السنين ينشأ جيل ينطق بلغة المستعمر كما ينطق بها أهلها أما اللغة العربية الفصحى، فتصبح لغة منسية أو شبه منسية حتى إذا أراد أحدهم أن يتكلم بها أخذ يرطن فيها كما ترطن الأعاجم والأجانب متعثرا بالحرف وبالكلمة وبالصياغة والتركيب([5])

إن الغاية الكبرى وراء استهداف اللغة العربية الفصحى هي تنشئة جيل جديد من أبناء العرب والمسلمين لا يستطيع أن يتذوق أساليب البيان العربي وموضوعاته، فإذا نفر الشباب من أسلوب القرآن الكريم والحديث الشريف، ومن شعر النابغة الذبياني وعنترة وأبي فراس وأبي تمام وانصرف عنه ثم عجز عن تذوقه وفهمه، فقد حكمنا على تعاليمنا الدينية السمحة، وعلى تراثنا العربي الأصيل بالكساد ثم الموت، وإذا انقطعت صلتنا بكل ذلك أمكن أن نقاد إلى حيث يراد بنا وإلى حيث لا تجمعنا بعد ذلك جامعة تجعل منا قوة تخيف الكائدين وتأبى على الطامعين ([6])

إن المستشرق ومن ورائه المستعمر استهدفا اللغة العربية الفصحى بخطة مفادها: ([7])

1-جعل التعليم بلغة الشعب الغالب المستعمر إجباريا في مختلف مراحل التعليم ولجميع المواد التعليمية.

2-جعل لغة المستعمرين هي اللغة الرسمية لدوائر الدولة المغلوبة ولدواوينها، وكذلك يفعل اليهود في فلسطين الحبيبة المحتلة حتى اليوم.

3-حصر الوظائف والأعمال بالذين يتقنون لغة المستعمر وتتبع اسرائيل هذه الخطة مع الشعب العربي في فلسطين المحتلة حتى اليوم.

4-إهمال اللغة العربية التي هي اللغة الأساسية للبلاد إهمالا كليا أو شبيها به أو جعلها في المرحلة الأولى للخطة لغة ثانية لا لغة أولى ثم التخفيف من شأنها شيئا فشيئا حتى تصل إلى مرحلة الإهمال الكلي، وهذا ما يجري في الإرساليات التعليمية في البلاد العربية والإسلامية.

5- التنفير من اللغة العربية بإثارة عبارات الاستهزاء منها ومن قواعدها والاستهانة بها مع الترغيب في لغة المستعمر عن طريق تزيينها في النفوس، وتوجيه الدعايات المختلفة لعلومها وفنونها وآدابها وربط المنافع الاقتصادية والعلمية والسياسية والصلات العالمية بها .

دوافع اهتمام المستشرقين بالدرس اللغوي العربي

إن دوافع اهتمام المستشرقين بالدرس اللغوي العربي تختلف ومن بين أهم هذه الدوافع نذكر:

1-**موقع الدرس اللغوي العربي:**

إن الدرس اللغوي العربي يأتي كما قال(تروبو) في موقع متوسط بين النظام اليوناني في الغرب والنظام الهندي في الشرق، فكان من الطبيعي أن يلفت المستشرقون أنظارهم إليه، ليدرسوا نشأته وتطوره([8]).

2- **شغف المستشرقين بالمقارنة بين المدارس اللغوية:**

لا شك أن الكثير منهم كانت تستهويه المقارنة بين المدارس اللغوية المتنوعة فراح يبحث في العلاقة بين هذه المدارس كاليونانية والسريانية والعربية، وعلاقة كل منها بالأخرى على نحو ما عمل (ميركس) وغيره ([9])

3- **قيمة الدرس اللغوي العربي**

إن الدرس اللغوي العربي له قيمة كبيرة، فهو حلقة مهمة في سلسلة العلوم الإسلامية، فقد عده (فايس) على درجة من الأهمية لمن أراد أن يقوم الحضارة الإسلامية، بل ذهب هذا المستشرق إلى أبعد من ذلك فنوه بأهميته التي تتجاوز دوره الكبير في تاريخ الدرس اللغوي بعامة إلى مكانته في دراسة تاريخ الفكر الانساني على الإطلاق([10]).

4- ***جهود النحاة القدامى الوسيلة المثلى لدراسة اللغة العربية***

لقد كان النحو العربي في صورته التي وصلت إلينا عن النحاة القدامى، الوسيلة المهيأة لدرسة اللغة العربية، وفي هذا يقول (ألبرت ديتريش) لقد كانت عدة المستشرقين في تعلم نحو اللغة مجموعة من الكتب التي أخذت عن العرب طريقتهم، وخضعت في الوقت نفسه لمنهج الغرب في دراسة اللغة([11]) ولذا ورد المستشرقون حوضه، وساروا على منهجه في تعلم العربية وتعليمها، ويأتي في مقدمة هذه الكتب كتاب (سوسين) الذي استفاد فائدة كبيرة من ألفية ابن مالك وشرحها لابن عقيل([12]).

كما ترجموا بعض كتب النحو إلى لغاتهم، وحققوا بعضها الآخر، فقد ترجم الألماني (يانز)(Jahns) كتاب سيبويه سنة 1895، وترجم الألماني (ترومب)(Trumpp) شرح الأجرومية، وقربه إلى القارئ الألماني ببعض الشروح الإضافية ونشره بعنوان " مدخل إلى دراسة النحاة العرب" ونشر (ديرنبورغ)(Derenbourg) كتاب سيبويه سنة 1881 ([13])، وممن ألفوا كتبا في النحو واللغة متأثرين تأثرا واضحا بالنحاة العرب كل من (هاول)(Howell)و(رايت)(Wright)، وغيرهم([14]).

القصد من وراء هذا الاهتمام ليس اقتصار المستشرقين على النحو العربي في تعلم العربية فإن لهم مدارسهم الخاصة، ومناهجهم المتميزة في وصف اللغة العربية وتعلمها ([15]) .

إن المستشرقين قلما يسيرون الآن على خطى النحو العربي بغرض تعلم العربية، ولعل من أبرز طرائقهم في تناول العربية دراستها في ضوء مناهجهم في دراسة لغاتهم، وهم يستخدمون لهذا الغرض الأساليب الإحصائية في الوقوف على أظهر مفردات اللغة وأشهر تراكيبها النحوية مع مقارنة ظواهرها بظواهر غيرها من اللغات، وبخاصة اللغات السامية من حيث الأصوات، وبنى الأفعال، والأسماء، وأصولها اللفظية والتركيبية، ولاشك في أن كثيرا من جوانب هذه الدراسات الاستشراقية قد عادت على اللغة العربية بالنفع ([16])

نشأة الدرس اللغوي العربي تفسير استشراقي:

إن الحديث عن نشأة الدرس اللغوي العربي هو حديث عن موضوع شغل اهتمام المستشرقين حيث أحصى بعض الباحثين ما صدر من هذه البحوث على مدى القرنين الأخيرين فقال أنها تصل إلى أربعمائة مؤلف ما بين كتاب

ومقال وأطروحة لمستشرقين وعرب مشيرا في ذلك إلى القوائم الببليوغرافية لكل من: بروكلمان، وبلانك،وبكالا، وديم، وفرستيغ([17]).

تناول معظم المستشرقين نشأة الدرس اللغوي العربي تناولا يجعل النحو وثيق الصلة في نشأته بالنحو اليوناني وهو ما أشار إليه المستشرق الفرنسي رينان (E.Renan) فقد ذهب إلى أن النحو العربي قد تأثر بالنحو اليوناني عن طريق السريان كما يذكر روندغرين (Rundgren) هذا الموقف ذاته لـ(هوفمان) (G.Hoffmann)([18]).

يجمع الكثير من المستشرقين على أن الألماني (ميركس)(A.Merx) أول من طرح هذه المسألة طرحا جادا وذلك في كتابه (تاريخ صناعة النحو عند السريان) (Historia artis grammaticae Apud Syros,Leipzig,1889)([19]).

كما أبدى المستشرق الألماني نولدكه(Noldeke) برأيه عندما رد على المستشرق (لاندبيرغ)(Landberg) حيث أيد وجود تأثير يوناني على النحو العربي، وقد استنكر ما ذهب إليه (لاندبيرغ) من نفي التأثير اليوناني على النحو العربي حتى إنه وصف ما ذهب إليه (لاندبيرغ) كما لو كان النحو العربي نما في الصحراء من تلقاء نفسه، ففي رأيه لا ينبغي أن ينكر لاندبيرغ بعد الآن وجود مؤثرات يونانية، وعلى وجه التحديد أرسطو طالسية على النحو العربي([20]).

يشاطر هذا الرأي كل من المستشرق الألماني (فيشر)(W.Ficher)، والمستشرقين اليهوديين (طلمون)(R.Talmon)، و(ريفيل)(E.J.Revell) حيث يجم عون على أن النحو العربي قد تأثر بمؤثرات أجنبية في مرحلة مبكرة من نشأته،أما ما وصل إلينا من هذا النحو ممثلا في كتاب سيبويه، فهو عربي، ويفترق فيشر عن الآخرين في أنه يعتبر التأثر باليونان قد تم بالفعل في فترة مبكرة من ظهور الإسلام، ثم انتهت فترة التأثر هذه بالخليل بن أحمد لتبدأ مرحلة أخرى بسيبويه، وهي مرحلة تخليص النحو العربي من المؤثرات الأجنبية([21]).

يفترض (طلمون) أن أولى مراحل نشأة النحو العربي قد اتسمت بتأثير أجنبي بينما كان ما يليها من القرنين الإسلاميين الأولين عبارة عن تطور إسلامي داخلي محض، فإذا افترضنا ذلك، فقد تمكنا من أن ندرك عدم إبراز العناصر الأجنبية في كتاب سيبويه بأنه نتيجة التطور الإسلامي الداخلي في نظرية النحو أثناء مرحلة ما بعد الابتدائية([22]).

ينفرد المستشرق الفرنسي (جيرار تروبو)(G.Troupeau) برأي في نشأة النحو العربي حيث يذهب إلى أن علم النحو أعرب العلوم الإسلامية، وأبعدها عن التأثير الأجنبي في طوره الأول ([23]).

دعائم زعم المستشرقين تأثر الدرس اللغوي العربي بالدراسات اللغوية الأجنبية:

1- التشكيك في صدق الروايات العربية:

حيث استبعد المستشرقون صدق الروايات العربية التي تعد نشأة النحو عربية خالصة، والاستخفاف بالروايات التي ترد النحو إلى أبي الأسود الدؤلي، وعدها في باب الأساطير والخرافات الساذجة، ولذا كان أبو الأسود وتلاميذه وجهودهم النحوية داخلا في عالم الأساطير، ويعود كثير منهم في رد ما جاء في المصادر العربية بهذا الصدد إلى قناعة لديه في أن النحاة والمؤرخين كانوا يتكتمون على وجود مؤثرات أجنبية لأن في ذلك جرحا لكرامتهم الوطنية العربية على حد تعبير (طلمون)([24]).

2-**دور الفرس:**

وهنا الإشارة إلى دور عبد الله بن المقفع، وهو أحد العارفين بالحضارة اليونانية، وقد ترجم عنها هو أو ابنه محمد بعض كتب الفلاسفة اليونان، وقد تأثر الخليل بن أحمد بعبد الله بن المقفع لما كان بينهما من صداقة ([25]).

3-**دور السريان:**

الحديث هنا عن تأثر أبي الأسود الدؤلي بيعقوب الرهاوي، فقد أخذ الأول عن الثاني- فيما يزعمون – طريقته في ضبط الحروف بالشكل، وكذلك الحديث عن حنين بن اسحق وابنه اسحق بن حنين، وقد زعموا أن الخليل بن أحمد كان على صداقة مع حنين الذي يعد من أظهر من نقلوا الفكر اليوناني إلى العربية عن طريق السريانية ([26]).

4- **تقسيم الكلام:**

يرى المستشرقون أن تقسيم الكلام إلى ثلاثة أقسام ليس عربي الأصل بل قال: (فريحة) إن هذا التقسيم إغريقي([27]).

5- **أمثلة سيبويه:**

يتخذ المستشرقون من أمثلة سيبويه دليلا على تأثر النحو العربي بالنحو اليوناني، ففي رأيهم أن الأمثلة التي تناولها سيبويه هي نفسها التي أشار إليها اليونان للتمثيل للاسم ،وهي الرجل، الفرس، والحائط([28]).

6 - **المفاهيم الاصطلاحية المبثوثة في كتب التراث النحوي العربي**

يذهب المستشرقون إلى أن من آثار اليونان التي ما تزال تلمس في الدرس اللغوي العربي بعض المفاهيم الاصطلاحية، ومنها علاوة على أقسام الكلام:([29])

أ- **الإعراب:** حيث يؤكدون أنه ترجمة للمصطلح اليوناني (Hellenismos)

ب- **الصرف:** ويعدونه ترجمة للمصطلح اليوناني (Klisis)، ومعناه الإمالة أو الصرف، أي: أن الكلمة يكون لها وضع أصلي تكون عليه، ومن هذا الوضع الأصلي قد تنصرف ،أي تميل لتأخذ وضعا آخر، وذلك من خلال تغيرات تطرأ على آخر الكلمة.

ت- **القياس:** ويقابل هذا المصطلح في اليونانية (analogia)، وتعني القياس.

ث- **الحركة:** يذهبون إلى أنها ترجمة للمصطلح اليوناني (Kinesis).

دعائم زعم المستشرقين تأثر الدرس اللغوي العربي بالدراسات اللغوية الأجنبية دعائم واهية

إن الدعائم التي اتكأ عليها المستشرقون لإثبات تأثر الدرس اللغوي العربي بالدراسات اللغوية الأجنبية هي ادعاءات وسنقف على دحض كل ادعاء :

1- التشكيك في صدق الروايات العربية :

فآراء المستشرقين تتجاهل المصادر الإسلامية خاصة كتب النصوص النحوية، وكتب تاريخ النحو، فهذه المصادر ترد نشأة العلوم اللغوية إلى ظروف محلية، ولم يرد فيها ما يشير إلى مؤثرات أجنبية هذه المصادر التي ينتمي أصحابها إلى أعراق مختلفة، وأوطان شتى، وهم متفاوتو المناهج والمشارب، وتعكس آثارهم المناخ العلمي الذي تتحدث عنه بأبعاده المذهبية والسياسية، والاجتماعية،فهذه المصادر أخبرتنا بما انتفعت به الحضارة الإسلامية من الحضارات المجاورة، فأخذنا عنها أن الخليفة عمر بن الخطاب قد أخذ عن الفرس نظام الديوان وأن بني أمية قربوا إليهم يوحنا الدمشقي، والأخطل وغيرهما من النصارى([30]).

إن بعض الباحثين الذين يقولون بالمؤثرات الأجنبية يشيرون إلى أثر الحركات الشعوبية في النحاة القدامى، فعيسى بن عمر كما يقول (ترزى) كان شعوبيا يطعن على العرب، وهو يرد يحيى بن يعمر إلى أصول سريانية، ولكن أحدا من هؤلاء لم يوضح لنا كيف يصمت هؤلاء الشعوبيون، فلم ينفذ لنا خبر عن تأثير السريان أو اليونان أو سواهم في العرب([31]).

2- افتراضات المستشرقين بلا أدلة:

تستمد نظريات التأثير الأجنبي في نشأة العلوم اللغوية العربية أدلتها علة اختلافها وتنوعها، وكما يعترف بعض القائلين بها من حقائق غير مباشرة، مشوبة بافتراضات لا إثبات لها في تلك النصوص، ولذا ازدهرت أساليبهم بعبارات من مثل قول أنيس فريحة وهو يتخيل علاقة لا وجود لها بين الخليل بن أحمد وحنين بن إسحق متخيلا أن الرجلين كانا يخوضان مباحث لغوية فيها كثير من المقابلات بين السريانية والعربية مؤكدا بأن العرب عندما أخذوا بوضع القواعد يجب أن يكونوا قد احتذوا حذو السريان لا الإغريق([32])، كذلك ما ذهب إليه حسن عون الذي ذهب إلى أن أبا الأسود الدؤلي كان على صلة بالسريانية([33])، وإنه على الأرجح قد تعلم منهم السريانية، وما أورده محمد أحمد برانق الذي أشار إلى أن أبا الأسود الدؤلي ومن جاء بعده من الذين اشتغلوا بعلم النحو اطلعوا هم أو بعضهم على نحو السريانية([34])، ويعضد ذلك ما ذهب إليه إبراهيم مدكور الذي اعتبر أنه من اليسير أن نتصور أن حنين بن اسحق قد تبادل فيما تبادل مع الخليل بعض القواعد النحوية ([35])، ويذهب فؤاد حنا ترزي في هذا السياق إلى القول " يغلب على الظن أن الفكرة التي طرأت لأبي الأسود الدؤلي في إمكان وضع قواعد للنحو لم تكن مرتجلة بقدر ما كانت ناجمة عن اتصال العرب بأمم كانت قد سبقتهم في تدوين نحوها"([36])

3- إدعاء أسطورية أبي الأسود الدؤلي:

إن من المبالغ فيه وما يعد من الشطط عدم احترام الباحث لإجماع العلماء القدامى على رد نشأة الدراسات اللغوية إلى أسباب وظروف محلية، وعدم ذكرهم لمؤثرات أجنبية في هذه النشأة، وإجماعهم على إعطاء دور لغوي طليعي لرجل احترف تعليم العربية، وعرف باهتمامه بالقرآن، وهو أبو الأسود الدؤلي بل لا يليق بالباحث أن يبالغ في عدم احترام هذه الروايات ،فيلقي بها جانبا، ويذهب إلى أن أبا الأسود كان شخصية أسطورية كما زعم بروكلمان([37])

4- التشابه الفطري بين اللغات والتشابه العفوي في وصفها

من المسلم به أن تلتقي المدارس اللغوية عرضا في وصفها للغات مختلفة لأن هذه اللغات مهما اختلفت فلا بد أن تجمع بينها صفات مشتركة بوصفها صادرة عن نشاط ذهني بشري له خصائص مشتركة في أصل جبلته وتكوينه، واشتراك المدارس اللغوية في ملامح متشابهة لا يعني بالضرورة أن إحدى هذه المدارس قد أخذت عن الأخرى فقد يكون التشابه ناجما عن تشابه بين لغتين، وتشابه اللغات ظاهرة يقرها علم اللغة الحديث، ويسعى للكشف عن قوانينها العامة ([38]).

كما أنه في كثير من الأحيان تؤثر لغة في لغة أخرى تأثيرا متبادلا بحكم الاتصال التاريخي والجغرافي بين اللغات مما وثق وجه الشبه في تطورها، فليس غريبا بعدئذ أن يتشابه اللغويون في وصف اللغات خاصة إذا كانت ملامح الشبه بينها لا تخفى كما هو الحال بين اللغات السامية، ولا يعني ذلك التقليل من شأن الفروق الواسعة بين لغة وأخرى على صعيد الأسرة اللغوية الواحدة، فضلا عن لغات الأسر اللغوية المتباينة([39]).

إن تلمس المستشرقين لأوجه الشبه بين مدلولات المصطلحات اليونانية أو السريانية والزعم بأن اليونان استخدموا مفهوم القياس، وهو مفهوم وارد لدى لغويي العرب القدامى والاستنتاج من هذا وأشباهه أن العرب قد أخذوا عن اليونان متجاهلين أن القياس منهج يستلزم التفكير العلمي في أي لغة، وفي غير اللغة من العلوم الأخرى([40]).

5- ادعاء نقل ابن المقفع للأفكار اليونانية

لقد رد هذا الادعاء بحجج كثيرة منها:

أ- لاحظ المستشرق (فرنشسكو جبرييلي) أن من غير المحتمل أن يكون ابن المقفع قد ترجم شيئا لأرسطو، فابن المقفع اهتماماته أدبية، وقد كان لا يعرف السريانية التي كانت تكتب بها التراجم الفلسفية في الغالب، ولم تعرف ترجمة فهلوية لهذه الكتب، بل لم تشر المصادر العربية والفارسية إلى شيء من ذلك، ولذا فإن افتراض دور لابن المقفع في ترجمة الكتب الأرسطية ([41]).

ب- يشير (بول كراوس)(P.Kraus) إلى أن ابن النديم لم يذكر شيئا من تراجم يونانية لعبد الله ابن المقفع، ولكنه في ثبت مترجمي كتابي أرسطو (قاطيغوراس وباري أرميناس) يذكر ابن المقفع، وليس عبد

الله بن المقفع، ثم يقطع كراوس بأن المقصود بالمترجم المعني هو محمد بن عبد الله بن المقفع معتمدا في ذلك على أن ثمة ترجمة عربية لإيساغوجي، وقاطيغورياس، وبارى أرمينياس،وأنالوطيقا، قام بها محمد بن عبد الله المقفع، وهي موجودة في مكتبة كلية القديس يوسف ببيروت([42]).

إذا ثبت بأن عبد الله بن المقفع لم يترجم كتب أرسطو حيث يذهب بعضهم إلى أنها ترجمت بعد تأليف كتاب سيبويه بعقود([43])، فإن هذا يدل على أن مذهب الخليل في النحو قد رسمت حدود، وبانت معالمه قبل ظهور هذه الترجمة([44]) وهو رأي يشاطره (ليتمان) حيث يؤكد بأنه لا يوجد في كتاب سيبويه إلا ما اخترعه هو والذين تقدموه([45]).

6-علاقة أبي الأسود ويعقوب الرهاوي المزعزمة

الحديث هنا عن العلاقة المزعزمة بين أبي الأسود الدؤلي والسريان ومنه يعقوب الرهاوي فيقرن (فيرستيغ) بين كل من نظام أبي الأسود الدؤلي ونظام يعقوب الرهاوي في ضبط الحروف،حيث يرى حسن عون أنه من العناد أن نقول أن أبا الأسود الدؤلي لم يستمد طريقة نقط الشكل من السريانيين الذين سبقوه بنفس العمل ([46]).

كما أن مصطفى نظيف يذهب إلى أنه كان ثمة ملابسات ذات بال اكتنفت وضع النحو العربي، فقد كان يعقوب الرهاوي من معاصري أبي الأسود، وكان بارعا في الفلسفة واللاهوت والنحو والتاريخ وله كتاب في النحو السرياني([47])

إن كلا من فريحة وترزي يجعلان من المعاصرة بين أبي الأسود الدؤلي(عاش بين 1-69ه=905-688م)، ويعقوب الرهاوي(عاش بين 633-708م=34-109م) دليلا يستأنس به على تأثر الأول بالثاني، وبخاصة أن الرهاوي وضع حركات اللغة السريانية، ولو نظرنا في السنوات التي عاشها يعقوب الرهاوي، وهي التي يذكرها كل من فريحة، وترزي لرأينا أنه عاش فيما بين 34-109ه أي أن أبا الأسود الدؤلي كان يوم ولد الرهاوي قد تجاوز الرابعة والثلاثين، ومن حقنا أن نتصور أن الرهاوي لم يولد عالما يتمكن من يومه من وضع نظام الحركات الذي ضبط به اللغة السريانية([48]).

وما يدحض هذا الزعم هو أن أبا الأسود قد شرع في ضبط اللغة في حياة علي رضي الله عنه الذي توفي سنة(40) للهجرة أي حين كان عمر الرهاوي لا يتجاوز السادسة([49]).

7-علاقة الخليل بن أحمد المزعومة بحنين بن اسحق

إن ما يفند وجود هذه العلاقة هو أن الخليل عاش من (100-170ه)، وأما حنين فمن 194-273ه والغريب أن هذا الخطأ لم يقتصر الوقوع فيه على فريحة فهذا كتاب الأعلام للزركلي يذكر التواريخ السالفة الذكر في ترجمته للخليل وحنين، ولكنه مع ذلك يقول في ترجمة حنين أنه سافر إلى البصرة فأخذ العربية عن الخليل بن أحمد، فكيف يأخذ العربية عن رجل مات قبل أن يولد هو بنيف وعشرين سنة ([50]).

8-الزعم بأن أقسام الكلام عند سيبويه هي نفسها عند اليونان

إن ما يرد هذا الزعم هو أن أقسام الكلام عند اليونان ثمانية، وهي عند سيبويه ثلاثة كما هو معلوم ويعود التقسيم الثماني الذي استقر عليه النحو اليوناني إلى ديونيسيوس (Dionysius) النحوي اليوناني، وما تزال آثار تقسيمه أساسا تسير عليه النظرة التقليدية لأقسام الكلام في نحو اللغات الأوروبية إلى يومنا هذا وهذه الأقسام الثمانية هي:([51])

8-1-Onama ويقصد به الاسم بما في ذلك الصفة Adjektiv + Substantiv

8-2-epirrhema، ويقصد به الظرف وحروف النداء + Adverb Interjektion

8-3-rhéma، ويقصد به الفعل verb وترجمته الحرفية (الكلمة)

8-4-metoché، ويقصد به اسم الفاعل واسم المفعول Participium

8-5-Prothesis، ويقصد به حروف الجر Praposition

8-6-s'yndesmos أي أدوات الربط konjunkion

8-7-ant' onymia أي الضمائر Pronomina

8-8-arthron، وهي أداة التعريف Artikel والاسم الموصول

9-الزعم بأن أمثلة الاسم عند سيبويه مطابقة لأمثلة ديونيسيوس

ما يرد هذا الزعم هو أن سيبويه ضرب للاسم الأمثلة الآتية:رجل، فرس، حائط أما ديونيسيوس واضع النحو اليوناني في القرن الثامن قبل الميلاد

فأمثلة الاسم عنده: إنسان anthropos، حصان hippos، حجر Lithos، وبذا يتضح أن المطابقة ليست تامة كما يقولون، بل إن وجه الخلاف أكبر من وجه الشبه، فضلا عن تحميل التمثيل عبء الدعوى بأن هذه المدرسة مأخوذة عن تلك ([52])

أسس المستشرقين الوصفية للدرس اللغوي العربي

إن الشك الذي رافق اشتغال المستشرقين بالدرس اللغوي العربي، وريبهم في جدوى الدراسات المعيارية القديمة هو ما جعلهم يرسمون منهجا جديدا يحمل أسس وصفية تقوم على :

أ- العودة إلى النصوص الأدبية ثانية وعدم الاكتفاء بقواعد النحاة في وصف الواقع اللغوي للعربية، وهذا ما فعله (نولدكه) الذي راح يرصد الظواهر اللغوية التي يعتقد أنها تخرج على ما ألفيناه من قواعد النحو العربي، مما صادفه فيما رجع إليه من مخطوطات، ونصوص قديمة مطبوعة،وقد خصص لهذا كتابا قال إن مادته تجمعت لديه على مدى أربعين سنة، وهو كتاب " في قواعد العربية الفصحى" نشره سنة 1897 في فينا، ثم أعيد نشره سنة1963 ([53]).

ب- مراعاة الفصل بين مستويات اللغة كالفصل بين استعمال اللغة في مجال الشعر، واستعمالها في النثر الأدبي الرفيع،كالخطب، والمديح، ووصف المآثر، والنثر الأدبي الدراج، كالأمثال والحكاياتـ ومن أمثلة الكتب التي أخذت بهذا المنهج كتاب بلوخ "الشعر واللغة في العربية القديمة"([54]).

ت- ملاحظة الفروق التي تترتب على اختلاف الموضوعات وأغراضها، وانتماءاتها زمانا ومكانا، وإبراز الفروق الشكلية بينها، وقد شك كثير منهم في صحة بعض الشواهد النحوية التي أوردها النحاة فعدوها مصنوعة، ولكن كثيرا من الجهود التي قدمت في هذا المجال تحتاج إلى جهود أخرى في مراجعتها، والتوثيق من مدى صحة نسبتها كما زعموا إلى عصرها ومصرها، وقائليها، وهذه المسألة مربوطة على نحو ما بالشك في رواية الشعر القديم وما أثير حولها من جدل([55]).

ث- إجراء دراسات وصفية مسحية للظاهرة اللغوية على نحو ما فعل بيرجشتريسر في أدوات النفي والاستفهام في القرآن الكريم، وغيرها من البحوث([56])

ج- الاهتمام باللهجات المحكية، فقد بلغ اهتمام المستشرقين باللهجات الدراجة حدا عدوها فيه اللغات الجديرة بالدراسة دون الفصحى، فقد ذهب بعضهم إلى إنكار أن تكون الفصحى لغة حية قياسا على واقع اللغتين اليونانية واللاتينية، وهذا ما فعله الخوري مارون غصن في كتابه " حياة اللغات وموتها، اللغة العامية" الذي صدر عام 1925 فقد راح هذا يؤبن اللغة العربية الفصحى انطلاقا من افتراض أن " كل لغة سائرة إلى الفناء"([57])،كما أن " ويليم بولك" يقول في تقديمه لكتاب " العربية الفصحى الحديثة" لــ:"" ستتكيفتش" متسائلا ساخرا من تعلق العرب باللغة العربية الفصحى : أليست اللغة قبل كل شيء مجرد وسيلة اتصال، ومن ثم تقوم بصورة أساسية في ضوء الجوانب العملية، وإذا ما وجدت وسيلة أفضل متوفرة ألا ينبغي اتخاذها؟ أيمكن أن تكون ثمة مزية حقيقية في المحافظة على لغات لا تفي بما يطلب منها؟ لغات هجرت منذ أمد أو في طريقها إلى أن تهجر([58]).

موقف بعض المستشرقين من الإعراب

إن الاستشراق جعل الكثير من الباحثين المستشرقين يتطرفون في بعض أحكامهم في خاصية الإعراب التي تميز اللغة العربية حيث يذهب المستشرق(فولرز) إلى القول: " إن القرآن نزل أول الأمر بلهجة مكة المجردة من ظاهرة الإعراب حتى نقحه العلماء على ما ارتضوه من قواعد ومقاييس حتى أضحى يقرأ بهذا البيان العذب الصافي وغدا في الفصاحة مضرب الأمثال"([59]) مع أن (نولدكه) رد عليه وسفه رأيه.

كما كان للمستشرق كوهين رأيا لا يختلف عن رأي فولرز حيث ذهب إلى إمكان إعراب القرآن لوجود الإعراب في الشعر ولكنه أنكره في الحياة العامة والعادية بين الأشخاص([60]).

يشاطر هذا الرأي المستشرق(فون كريم) حيث ذهب إلى أن الرواية التي تقول بأن تسرب الفساد إلى اللغة العربية كان هو السبب في وضع القواعد النحوية لإنقاذ اللغة من اللحن رواية لا أساس لها، ولا يعول عليها إطلاقا، فالنحو العربي من وضع الأجانب لتعلم اللغة العربية، وقراءتها على وجه صحيح([61])

هذا جانب من جوانب عناية الاستشراق بالدرس اللغوي العربي حيث تتجلى الرؤية المشككة في نشأة هذا الدرس وحيث يصر معظم المستشرقين

على ربط الدرس اللغوي العربي بغيره من الدروس اللغوية، كما أنه يؤكد دوافع عناية المستشرقين بالدرس اللغوي ودواعي تشكيكهم في أصالة الدرس اللغوي العربي وبلورتهم لمناهج تخدم تلك الرؤية التي تحمل ريبا متجددا في أبواب أصيلة في هذا الدرس كما هو الحال بباب الإعراب ولا يزال الاستشراق يتقصى جميع علوم العربية وآدابها بدوافع علمية وحضارية وثقافية تارة، وسياسية تارة أخرى ولغايات استعمارية في غالب الأحيان.

الهوامش والإحالات

[1] د. فاطمة هدى نجا، نور الإسلام وأباطيل الاستشراق ،مرجع سابق، ص207

[2] المرجع نفسه، ص207-208

[3] المرجع نفسه، ص208

[4] المرجع نفسه ص 209

[5] المرجع نفسه ص210-211

[6] المرجع نفسه ص211

[7] المرجع نفسه ص 212

[8] G.Troupeau,Lexique-index du kitab de Sibawayhi.Paris.1976,p125

[9] د.اسماعيل أحمد عمايرة،المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية- دراسات لغوية، دا حنين العبدلي ،ط2،عمان الأردن،1996،ص13

[10] J.Weiss , Die arabische Nationalgrammatik una die Lateiner.ZDMG64.1910 ?PP349

[11] أ. ديتريش، الدراسات العربية في ألمانيا، مرجع سابق، ص12

[12] المرجع نفسه، ص12

[13] د.اسماعيل أحمد عمايرة،المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية- دراسات لغوية، مرجع سابق ،ص14

[14] د.اسماعيل أحمد عمايرة، المستشرقون ومناهجهم اللغوية المنهج التاريخي، والمنهج المقارن، والمنهج الوصفي، إربد، الأردن،ص19

[15] د.اسماعيل أحمد عمايرة،المستشرقون ومناهجهم اللغوية،مرجع سابق، ص82

[16] د.اسماعيل أحمد عمايرة،المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية- دراسات لغوية، مرجع سابق ،ص14-15

[17] المرجع نفسه، ص38

[18] .Rundgren,Uber den griechischen Einfluss auf die arabishe National

[19] F grammatik, Acta Sociatis Linguisticae Uppsaliensis.Nova Series2 :5(1976),p121-122

[20] د.اسماعيل أحمد عمايرة،المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية- دراسات لغوية، مرجع سابق ،ص38-39

[21] المرجع نفسه، ص 39

[22] المرجع نفسه،ص40-41

[23] طلمون رافي، مذهب المؤرخين العرب في نشأة علم النحو العربي، مجلة الكرمل، العدد1983،4،ص97

[24] تروبو جيرار، نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد الأول، 1398ه-1978م،1978،ص139

[25] د.اسماعيل أحمد عمايرة،المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية- دراسات لغوية، مرجع سابق ،ص42-43

[26] المرجع نفسه ،ص43

[27] المرجع نفسه،ص43

[28] المرجع نفسه، ص 43-44

[29] المرجع نفسه، ص44

[30] المرجع نفسه، ص 44

[31] المرجع نفسه،ص 45

[32] المرجع نفسه،ص46

[33] فريحة أنيس،في اللغة العربية وبعض مشكلاتها، بيروت ،1966،ص37

[34] ناصف على النجدي، ابو الأسود الدؤلي، القاهرة، 1968،ص161

[35] برانق محمد أحمد ،النحو المنهجي ،ط2، لجنة البيان العربيأ القاهرة، 1959، ص22

[36] مدكور ابراهيم بيومي، في اللغة والأدب، دار المعارف، القاهرة،1971، ص47

[37] ترزي فؤاد حنا، في أصول اللغة والنحو، بيروت،1969،ص106

[38] د.اسماعيل أحمد عمايرة،المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية- دراسات لغوية، مرجع سابق ،ص47-48

[39] المرجع نفسه،ص48

[40] المرجع نفسه، ص48

[41] المرجع نفسه، ص48-49

[42] بدوي عبد الرحمن، التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، ط4، بيروت،1980،ص101

[43] المرجع نفسه،ص101

[44] طلمون رافي، مذهب المؤرخين العرب في نشأة علم النحو العربي، مرجع سابق ،ص96

[45] المخزومي مهدي،عبقري من البصرة، العرلق،1392ه1972م،ص88

[46] المرجع نفسه،ص88
[47] أبو المكارم علي، تقويم الفكر النحوي، بيروت،1970،،ص71
[48] ناصف علي النجدي، أبو الأسود الدؤلي، القاهرة ،1968،ص161-162
[49] د.اسماعيل أحمد عمايرة،المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية- دراسات لغوية، مرجع سابق ،ص52
[50] المرجع نفسه. 52
[51] المرجع نفسه. 57-59
[52] المرجع نفسه. 60
[53] المرجع نفسه،ص64-65
[54] د.اسماعيل أحمد عمايرة،المستشرقون والمناهج اللغوية،دار حنين،ط2، الأردن،1992،ص104- 105
[55] المرجع نفسه،ص 106
[56] المرجع نفسه،ص 106
[57] المرجع نفسه،ص107
[58] المرجع نفسه. ص 111
المرجع نفسه ،ص111-112
[59] صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين،ط12، بيروت لبنان، 1989،ص122
[60] طلال علامه، تطور النحو العربي، دار الفكر اللبناني،1993، ،ص98
[61] فون كريم، الحضارة الإسلامية، ت.بدر، دار الفكر العربي، ص90